رحلات فى ديار الشام فى القرن الثامن عشر الهجرى :

٢ ـ اردان حلة الاحسان
فى الرحلة إلى جبل لبنان(*)
لمصطفى البكرى الصديقى
(١٠٩٩ هـ – ١١٦٢ هـ – ١٦٨٧ م – ١٧٤٨ م)
للأستاذ أحمد سامح الخالدى

كان صديقنا والد الأولاد المرحوم الشيخ مراد توفى فى شهر ربيع الأول فعملنا عند قبره ختما ، وطلب ليلة السير الولد الكبير الاندراج فى السلك مع اخوته فأجبته ، فأخذ صالح الدأب على الخير ، وتبعه أخوه خير وأخوتهما ومصطفى وعلى وخالد وعمر وأولاد صالح ، وسرنا بعد أن ودعنا الاخوان وصلينا الجمعة فى (سحموانه) وجاءنا من صفد ، من له الغرام بالتحريك أوثق صفد ، وبتنا فى (قلعة معليا) الرفيعة ، وفى الصباح عاد أهل صفد وصحبهم الأخ الشيخ عمر البقاعى وأرسلت معه كتاباً للصهر . ومنها توجهنا يمن معنا إلى الساحل ، وقبلنا لدى ذى النون المصرى القيم الراحل ، فقلت :

ومررنا بلصق جدران (عكة) بلدة فى الثغور ثورت عكة
وحديث عدوها فضيف يبكها الجسم لا تقسه ببكة
وقطعنا نهر الدعائم سرعاً وأسسينا لدى القطع ركة
ورأينا قريب قلعة حيفا وسكنا الجفا على العنق سكة
وسألنا الاله تقريب قدس وارتحالا اطيبة ثم مسكة

وبتنا فى قرية (صدفند) بعد مشقة ، ومنها أتينا حى (عتيل) وعرمنا فى الصباح على الرحيل ، ونلنا من أهلها إكراماً له حال تقيل ، وحثثنا المطى بلا وقوف ، إلى (الطيبة) الطيبة الحلوف ، وهذه القرية من قرايا بنى صعب[1] التى يأمن بها الخائف ويهون الصعب ، وهم بطن من كندة ومن بجيلة ، وكندة بالكسر ، قبيلة من اليمن ، وقيل الكندى لقب ثور بن عفير أبى حى باليمن لأنه كند[1] أباه النعمة ولحق بأخواله . قاله فى القاموس . وفى المصباح المنير بجيلة قبيلة من اليمن والنسبة إليها بجلى بفتحتين ، مثل حنفى فى النسبة إلى بنى حنيفة ، وبجلة مثل تمرة قبيلة ، والنسبة إليها على لفظها انتهى . ومنها حوّل تبأ الدليل السلفيتى ، إلى قرية (كور) فقدّر بها مبيتى ، لدى الأخ الحاج حسن بن مقلد[2] وسرنا إلى الخربة الطيبة الماء والتربة ، وفيها ورد علينا الأخ الشيخ نور الدين [الهوارى] ضحوة النهار ، وفى صباح يوم الخميس ، أول ذى الحجة الأنيس ، سرينا حتى أتينا (صنّير) ، عازمين أنا بعد الغدا نسير ، والقصد التوجه إلى جنة (الذاوية) ، لدعوة رضوانها المنتمى لهلال مرابعها المذاوية ، فبتنا لديه ، وأدخلنا صهره السيد محمد الطيارى على ابنته الصغيرة . وبايع بعد العشاء جماعة تفوق على العشرين ، وتقدمنا إلى (دير غسّان) ، وبتنا فيها بليلة حسان ، ودعانا الشيخ إبراهيم الرابى للغدا ، فتوجهنا لزيارة (الخواص) سيد إبراهيم وافر الندى ، فقلت :

أيها الواردون للخواص إن هذا المقام نزل الخواص

وتوجهنا صبحاً إلى قرية (عابود) لدعوة أهلها ففتحنا باب الوفود ، ورقينا تلك المنازل ذات الصعود ، وبتنا فيها وحبل السرور ممدود ، ومنها سرينا نجد فى السير إلى (بيتلو) للاصطباح ولم نبت إلا لدى (نبى الله شمويل) ولما أرسينا بشطه وأمسينا فيه ، وفد علينا من المقادسة من نصطفيه ، فكانت الوراد من المنزل المقدس تفوف على العشرين . وفى ضحوة نهار الثلاثاء سادس الحجة عمدنا الديار المقدسة محبة الأحباب ، وتلقانا أناس أطهار أخيار ، وإخوان صفا أولى ادكار وأذكار ، ودخلنا مصاحبين الفاقة والذلة والإنكسار ، رجاء الانجبار بتلو البردة الشريفة على عادة أهل الديار ، إلى أن وصلنا قبة السلسلة المرفوعة الأطوار ، وزرنا بعد ختم الذكر المنارة والصخرة الشهيرة الأنوار ، واجتمعت بالأهل والبنية صانها الستار ، وحصل بالاجتماع كمال السرور للحضار » .

وقد استغرقت هذه الرحلة من دمشق إلى القدس عن طريق

(*) محفوظ فى خزانة الكتب الخالدية .

(١) هو قضاء طولكرم الآن وأصلها طورکوم .

(١) كندا السمة كفدها .

(٢) هو حسن بن مقلد الحيوسي ، شيخ بنى صعب . وآل الحيوسى يسكنون قرية كور حتى اليوم .

البقاع ولبنان تسعة عشر يوماً . وأخذ الشيخ بعد ذلك يدور فى فلسطين ، ويزور مشاهدها ويدون لنا فى رحلته ما شاهده من الآثار ، ومن اجتمع به من السادة الأخيار .

* * *

ويقول الشيخ : « ودخل العيد ونحن فى صفاء ما به أكدار ، ووردت علينا بعد أيام مكاتبات من أحباب أخيار نخام ، وأرسلنا الجواب البار ، إذ شاقنا التذكار لأهل حلب والشام ، وبقية خطاب كرام ، وحصل بعد الحضور فتور قريحة فلا نثر ولا أشعار ، وكان الأخ السلفيتى توجه إلى مربعه ، وبعد أيام من الإقامة وجمع جامعه لكل مرة مداحة ، حصل رمل عين ، أورث نكد عين ، ثم اتبعتها أختها وحصل الشفا . وحين هل هلال محرم الحرام ، سنة (١١٤١هـ) استقمنا على نظام واحد فى الخيام ، هاجرين منهج النظام قهراً ولما آن أن يدنو منه التمام ، بشرت بحمل وقيل أنه غلام ، قلت ما جاء هدية من السلام ، فهو لدينا مقبول ولا ملام ، وعسى أن تكون بنية ذات حال سما ، لاسميها باسم والدتى الشريفة عُلما . وفى صفر الخير اتضحت البشارة ، وزال فى شهر المولد لبس الستارة ، وكان الأخ السيد محمد (السلفيتى) وعد بالعود ، لأجل أن يرافقنا فى الزيارة العليلية [1] فعزمنا على المسير إليها ، ورافقنا الأخ الشيخ رضوان نجل رضوان الزاوى ، والأخ الشيخ نورالدين الهوارى ، وغيرهم من الإخوان ما لهم مساوى . وذلك نهار السبت السادس من شهر ربيع الأول شهر المولد » .

الزيارة العليلية :

« وحين واجهنا سيدنا (شمويل) [2] قرأنا لجنابه فاتحة الكتاب ، وبعد هنيهة فى المسير ، أنشد رضوان الزاوى :

شوش الجمال قابي حين نادى بالرحيل
قلت للجمال خذني قال لى حملك ثقيل

« وما زلنا على نجد نحب الأرض حباً والوقت أدلى اردان بسطه علينا وذوقنا قضباً وحباً وفاكهة ، ونزلنا للاستراحة وقت الضحى ، ولم نعقل الدار غب طى تلك المسافة إلا فى (عابود) ونزلنا غب استقبالهم الضافة . وفى يوم الاثنين غلساً سرنا ، وللاستراحة فى (نزلة) نزلنا ، وانبسطنا على زيارة سيدنا يهودا وهو أحد أولاد سيدى يعقوب . فقلت :

يا خليلى متلف الوجد عودا وانشقانى نداً عهدت وعودا

وبتنا بقريته المأنوسة ، فى دعوة الصديق الشيخ إبراهيم الخليلى القاسمى ، وفى الصباح أتينا (بازور) وزرنا مقام سيدنا حيدرة المنسوب لسيدنا على بن أبى طالب ، ودخلنا (ساقية) . وفى الضحى سرنا إلى (يافا) ، وقد تلقانا أحبة ، لهم صدق خلوص وفى (الجامع الجديد) حللنا به ، إذ الرفاق جمعهم جمع ، ودعانا الأخ السيد صالح محرم للدار ، وبتنا عند أخينا العواد ، نافين الأكدار ، وتوجهنا للحرم الخليلى ، وحضره قبلنا الأخ الحاج حسن مقلد ، وجاءنا نفر من أهل يافا ، وصحبتهم الشيخ خاطر المجذوب وختمنا بعد العصر الربعة الشريفة ، وعملنا المحيا ليلة الجمعة وأقمنا فيه يومها » .

العودة عن طريق نابلس :

وبعد العشا ، وبعد العشا ، توجهنا إلى (بيامين) وقرأنا الورد السحرى لديه ، وأتينا (كور) وأقمنا بها ليلتين ، ثم وردنا نابلس المحمية ، ونزلنا بساحة (الدرويشية) ودعانا المحب ، الحاج حمدان الطويل ، وأخذ ولده الدخيل الشيخ يوسف وصالح للتكميل ، وقام بما يلزم من إكرام جناب صالح باشا بن توقان [طوقان] ، وزرت مع الأخ السلفيتى فى جبلها الشرقى سيدى الشيخ غانم القدسى ، وتوجهنا يمن معنا إلى قرية (عيبوس) ، وأخذنا المهد الشيخ عمر مملوء الطاسوس ، وحضر الأخ المأنوس السيد محمد وقال ما أثرت فى مبايعة أحد من إخوانى ، مثل ما أثرت فى مبايعة هذا الأخ الجنانى ، ولا سمعت ذكراً أحلى من ذكرك حال التلقين الاحسانى ، فانى بمجرد قراءتك الآية الكريمة خشعت أركانى ، وهمت أجفانى . فقلت له كان الوقت طيباً مغموراً بحضور أهل النور الصمدانى .

---

(١) نسبة إلى سيدنا على بن عليل : ومقامه شمال يافا وهو من نسل عمر بن الخطاب . توفى (٤٧٤ هـ) ويقول فى الأنس الجليل أنه أخبر أن الأفرنج إذا أقبلوا على ضريحه وهم فى البحر كشفوا رؤسهم وسكنوا .

« وسرنا إلى قرية (جاعين)[1] وبتنا بها ليلة الأحد ذات السحاب المين ، وقرأنا الورد السحرى فى الجامع على جمع من الأعيان . ونحونا نحو (مردا) لم نجد عنها مردا ، وبعد ما أظهرنا مضينا إلى قرية (كفر عين) راجين صلح بنى زيد ، عسى المين عليه يعين ، وبتنا بها فى دار على جلبانها السرور دارا ، ونهجنا منها إلى (دير غسان) بوجدنام ، وقاب رهين منهان ، وأقمنا فيها لأجل الإصلاح ، إذ بدا شر بتلك البطاح ، وأخذنا عطوا شهر للراحة ، وسرنا للمنازل بنفوس مرتاحة ، ولدى (بيت ريما) أزلنا قصراً للاكرام ، وفى (تبتلو) غنا وبها مدت موائد انعام ، ولم نصلّ الظهر إلا فى بيت الحرم ، الكائن عندى فى الدار المعدود من النعم ، ورجع أخونا السيد محمد ومن معه للمنازل وأرسلت للصهر المحترم كتاباً جعلته عن كتب جواباً . وصدرته بقصيدة .

سيف الهوى ما أفله بعد بلى ذاك سله

وأرسل جواب هذا الكتاب مصدراً بنظم مستطاب مطلعه

غضب الهوى ما أسله ياويح من رام سله
به الفـــؤاد عليل باليتـه ما أعـــله
فصار جسمى نحيلا من الضنا كالأخله
وقد سرى فى عروقى مثـل الدما وأحله
حتى كـأنى وجـداً قد صار للقلب حله الخ

وجاءنى منه كتاب ثان ينبىء عن الحب الرفيع الشأن ، وذكر فيه موشحاً للسيد يعقوب الكيلانى ، نجل السيد عبد القادر الحوى الدانى ، وهو على طريقة الأندلسيين . وبعد أيام من ورود الكتاب القندى[2] ، وجاءنى الدرويش الحاج يعقوب السندى ، وطلب منى حال عزم على السفر مكاتبات أربعة أحدها لشيخنا الشيخ عبد الغنى (النابلسى) ومطلعه :

يا قوى من لصب ما غفا طرفه فدام نادى القدس
صافحاً هم التنائى فى الصفا إذ تلى بالجـمال الأنفس الخ

وكنت أجبت الدرويش يعقوب لما طلب المكاتبات الأربعة إنى منذ أتيت هذه الديار ، أتكلف لكتابة مكتوب حروفه مجمة وإن أردت النظم والنثر العادى ، أراه متعسراً على ، ولو تعمل له فؤادى . فما زاده الإعتذار إلا إلحاحاً وإلزاماً فى الطلب ، فدفعت له مكاتبة الأستاذ اللاذ [أى الشيخ عبد الغنى النابلسى] فقال إنه يهديك هدية سنية تفوق لديك اللاذ ، ثم كر على طلب البواقى ، فعملت له مكتوباً لشيخنا الساق الشيخ ياسين الحوى الجيلانى فقلت :

وكذا نهدى تحايا قدمت وزكت أين ذكا منها أخى
وثنايا سحبها فيضاً همت بسطها للقبض يزوى أى زى الخ

وأرسلت للصهر الأمجد كتاباً مصدراً بموشح :

أصبحى أريحى أرجحى لوذعى اللمى أجمى
افوبى أروحى أنجحى إرقى اشجى ارتقى
أنصحى إبطحى إسمحى إبدعى إطوعى أجرعى
ثغرة بت البخارى وأنا مسلم كأس الوطا محتسى
واسكم إذهب عنا من عنا وعياء وعلى ذا فقس الخ

وكتبت كتاباً للأخ الحميم الشيخ عبد الكريم المشهور بنسبه الكريم ، بالشرابانى النديم وصدرته بموشح :

أيها السيار سرّ بى للحمى
واسقنى من صرف صافى الاكؤس

وإذا ثنيت ثلث قائلا قد غلى المقر الأنفس الخ

ولما أتممت المكاتبات المطلوبة ، وأحضرتهم على كيفية مرغوبة ، تأخر الدرويش يعقوب عن السير ، منتظراً للاذن المحبوب للقلوب عند الطروب . وكان قدم علينا غب العودة من الزيارة رجل مصرى يدعى موسى انتمى إلينا فيها ، وقصده التجارة لكنه مقلوب نفس ، منهوب حدس ، محجوب عبارة ، ملسوب حية أمارة ؟

« وفى يوم الأربعاء من أواخر شهر ذى الحجة توفى الأخ الأمجد الأوحد السيد محمد السلفيتى وسيأتى تاريخ وفاته وبعض ترجمته فى حال زيارة تربته ومرثيـــة قلتها فيه ، ما زالت الرحمات توافيه » .

« يتبع »

أحمد سامح الخالدى

(١) هى (جاعيل) من أقضية جبل نابلس ، وأحد مراكز العلم فى العصور الوسطى .

(٢) القند عسل قصب السكر إذا جمد .

اطلب كتاب

مبادىء فى القضاء الشرعى